الفصل الثامن

النابغة الذبياني

١

قبيلتــه

النابغة من قبيلة ذبيان الغطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان، وإلى بغيض تنتسب أيضًا قبيلة عبس. ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فزارة وبنو مرة وبنو سعد، ومن فزارة بنو مازن، وبنو بدر وفيهم كانت رياسة فزارة في الجاهلية، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حمل. ومن بني مرة بنو غيظ وبنو سهم وبنو صرمة وبنو خصيلة وبنو نشبة وبنو يربوع عشيرة النابغة، وسيدًا بني مرة غير مدافعين هرم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحًا زهير بن أبي سلمى.

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلي مع حرب داحس والغبراء التي نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيها يقول الرواة نحو أربعين عامًا امتدت فيما يُظن من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد. ومر بنا أن السبب في نشوبها سباق داحس والغبراء، وكان داحس جوادًا لقيس بن زهير سيد بني عبس، وكانت الغبراء فرسًا لحمل بن بدر سيد بني فزارة. وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كمينًا في نهاية الشوط نفره عن غايته، فسبقته الغبراء. واستشاط قيس غضبًا، وطلب الرهان، وبعث حمل ابنه يطلب منه الرهان المضروب- وقتله قيس. فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين، واشترك فيها أحلافهما، فكان مع عبس بنو عامر، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد، ودارت سلسلة معارك طاحنة، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان، وفيه قتل عنترة ضمضما أبا حصين المرى والحارث بن بدر، وممن قتل فيه أيضًا عوف بن

بدر، ويوم ذي حسى وكان لذبيان على عبس، ويوم جفر الهباءة وكان لعبس على ذبيان وفيه قتل حذيفة وحمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حارًا، يقول في بعضه[1]:

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بــن بَــدْر ... وسيفي من حُذَيْفَةَ قد شفانــي

شفيتُ بقتلهم لغليــل صَــدْري ... ولكني قطعــتُ بهــم بَنانــي

وثأرت ذبيان لنفسها في معركة الجراجر أو ذات الجراجر. ثم تجمعت ذبيان وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر، واشتبكت الفئتان في يوم شعب جبلة، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها، وإذ أثخنت فيهم عبس وعامر القتل فقتل لقيط بن زرارة التميمي وأسر أخوه حاجب. ولم تلبث ذبيان أن أوقعت بعبس وعامر في يوم شعواء وقعة منكرة. ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التي أتت على الأبطال والرجال، فأرسلت وفدًا إلى ذبيان يطلب الصلح، ولقي الوفد سيدي بني مرة: الحارث بن عوف وهرم بن سنان، فحملاً قومهما على الصلح، وتحملاً ديات القتلى، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير. وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها، ويُظن أنه لم يُكتب للنابغة أن يرى انفضاضها، فقد توفي قبل ذلك بقليل.

وبينما كانت ذبيان تدير رحي هذه الحروب كانت تدير رحي حروب أخرى مع الغساسنة، وكان يؤازرها أحلافها من بني أسد، ولعل في ذلك ما يدل على أن القبيلتين جميعًا كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة، فهم يشرعون سيوفهم ويشهرونها في وجوه خصومهم، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة ينهزمون وتمتلئ أيدي الغساسنة بأسراهم، مما اضطر النابغة على نحو ما سنرى بعد قليل أن ينزل بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء السرى حريتهم.

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائمًا في رفاق ووئام، فهي تتجمع لحرب عبس والغساسنة، ثم تعود فتتناحر داخليًا، على نحو ما تصور ذلك أشعار بشامة بن الغدير والحصين بن الحمام المري وزبان بن سيار الفزاري والنابغة، إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر،

---

(١) عيون الأخبار ٣/ ٨٨ والمرزوقي على الحماسة ١/ ٢٠٣ وسمط الآلي للبكري ٣٠٥.

وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها، فمن ذلك قول الحصين بن الحمام عقب معركة بين عشيرته بني سهم وبين بني صرمة، وفيها انتصبر الأولون[1]:

صَبرنا وكان الصبرُ فينـا سجيَّـةً ... بأَسيافنا يقْطَعْنَ كفًّـا ومِعْصَمـا

يُفَلِّقْنَ هامًا مـن رجـالٍ أَعـزَّةٍ ... علينا وهم كانوا أَعـقَّ وأَظلمـا

ونجد يزيد بن سنان أخي هرم بن سنان يطلق زوجه، وكانت حلفًا سمي حلف المحاش، وما يزال بيربوع حتى يجليها عن ديارهم إلى ديار بني عذرة، وفي ذلك يقول النابغة:

جَمِّعْ مَحَاشَك يـا يزيـد فإننـي ... أَعددتُ يَرْبُوعـًا لكـم وتميمـا

حَدِبَتْ عليَّ بطونُ ضِنـَّةَ كلهـا ... إنْ ظالما فيهـم وإن مظلومـًا[2].

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائمًا، بل كثيرًا ما كانت تتحارب وتتقاتل ويعتزل بعضها بعضًا، وقد تترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عذرة وغير عذرة.

وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد في الجاهلية العزى وتتخذ لها كعبة تحج إليها، وتقدم لها النذر والقرابين، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم. ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيتها حتى دخلت في الإسلام الحنيف.

---

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص٦٥ والهام: الرءوس.

(٢) ضنة: عشيرة من عذرة.

٢

حياتـه

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب[١] بن يربوع، وأمه عاتكة بنت أنيس من بني أشجع الذبيانيين، فهو ذبياني أبًا وأمًا، وكان يكني بأبي أمامة وأبي ثمامة[٢]، وهما ابنتاه، كما كان يلقب بالنابغة، وبهذا اللقب اشتهر. واختلف الرواة في سبب تلقيبه به، فقيل لقوله في بعض شعره: (فقد نبغت لنا منهم شئون) وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله[٣]. ونظن ظنًا أنه سمي بذلك لنبوغه في شعره وتفوقه فيه، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقب بنفس اللقب مثل النبغة الجعدى والنابغة الشيباني والنابغة التغلبي، ويميز هو منهم باسم النابغة الذبياني.

ولسنا نعرف شيئًا واضحًا عن نشأته ولا عن شبابه، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشراف ذبيان وبيوتاتهم، وقد يكون في مصاهرة يزيد أخي هرم ابن سنان له وهو من أشراف ذبيان ما يقطع بذلك. وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن في شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثاني من حياته، وهو شطر بدأه بالنزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة[٤] ولزومه له يمدحه ويتغني بمناقبه. ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة، وكانت تدخل ذبيان في هذا الولاء، فطبيعي أن يقصد شاعرها النابغة النعمان بن المنذر وأن يضفي عليه مدائحه. وسر النعمان بوفوده عليه، فقربه منه ونادمه، وأجزل له في العطايا والصلات، حتى

---

(١) هكذا في ترجمته بالأغاني (طبعة دار الكتب) ١١/ ٣ وفي شرح التبريزي للمعلقات العشر جابر بن يربوع بدلاً من جناب بن يربوع.

(٢) أنظر الأغاني ١١/ ٣ وترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٠٨ وما بعدها.

(٣) الأغاني ١١/ ٤ وراجع الشعر والشعراء ١/ ١٠٨ وشرح المعلقات الشعر التبريزي.

(٤) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها: أتاركة تدالها قطام وضنا بالتحية والكلام وأغلب الظن أنها منتحلة عليه، هي ليست على كل حال في رواية الأصمعي للديوان، وروى الشنتمري عن أبي عبيدة أنه مدح بها عمرو بن الحارث الغساني.

أصبح شاعره الفذ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حجر التميمي والمثقب العبدي ولبيد العامري ولكن أحدًا منهم لم يكرمه إكرام النابغة، وقد صور ذلك في معلقته، إذ يقول:

الواهب المائةَ المِعْكـــاء زيَّنهـــا ... سَعْدَانُ تُوضِحَ في أَوبارها اللِّبَـــدِ[1].

والأُدْمَ قد خُيِّسَتْ فُتْـــلا مرافقُهـــا ... مشدودةٌ بِرِحال الحِيرة الجُـــدُدِ[2].

والرَّاكضاتِ ذيولَ الرَّيْـــطِ فانقَهـــا ... بَرْدُ الهواجِرِ كالغِزْلانِ بالجُـــرَدِ[3].

والخَيْلَ تَمْزَعُ غَرْبًا فـــي أَعِنَّتِهـــا ... كالطَّيْر تنجو من الشُّؤْبوب ذي البَـرَدِ[4]

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذللة كما كان يعطيه القطيع من الخيل، غير الجواري المنعمات. على أن حادثًا حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه توًا إلى بلاط الغساسنة، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بني أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادي أقر الخصيب، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل، وارتادته ذبيان وأسد، فنكلوا بهما تنكيلاً فظيعًا، سبوا كثيرًا منهما ومن نسائهما. فألم النابغة ألمًا شديدًا صورة في فوله:

لقد نهيتُ بني ذبيانَ عن أُقُـرٍ ... وعن تربُّعِهم في كـــل أَصْفار[5].

وقلتُ يا قوم إن اللَّيْثَ منقبـضٌ ... على بَراثنه لوثْبـــة الضـــارِي[6].

لا أَعرفَنْ رَبْرَبًا حُورًا مدامعُهـا ... كأَنَّ أَبكارهـــا نِعـــاجُ دُوَّارِ[7].

---

(١) المعكاء: الغلاظ القوية، ويريد الإبل. توضح: موضع. السعدان: مراع. لبد الشعر: ما تلبد منه.

(٢) الأدم: النوق البيض. خيست: ذللت. فتلا مرافقها: كناية عن قوة خلقها ومتانتها.

(٣) الراكضات: الساحبات. الريط: ثوب طويل. فانقها: نعمها. الجرد: موضع.

(٤) تمزع غربًا: تسح سحا شديدًا. الشؤبوب: السحاب أو دفعات مطره.

(٥) أقر: واد. تربعهم: إقامتهم وقت الربيع. أصفار: شهور الربيع جمع صفر.

(٦) البراثن: الأظفار. الضاري: متعود الافتراس.

(٧) الربرب: القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به. حورًا: جمع حوراء، وهي العين الجميلة واضحة البياض والسواد. النعاج: إناث البقر. دوار: اسم صنم كن يطفن به في الجاهلية.

ينظرْن شَزْرًا إلى من جاءَ عن عُرُضٍ بأَوجهٍ منكرات الــرِّقِّ أَحــرارِ[1].

يَذْرين دَمعًا على الأَشفار منحــدرًا يأْمُلْنّ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابن سَيَّــارِ[2].

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أسرن، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يمينًا وشمالاً، لعل بطلى قومهما حصن بن عيينة وزبان بن سيار يقدمان بالجيوش، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار، وفي بعض الروايات أنه كان بينهن إحدى بناته. وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببني أسد، فقال في قصيدة أخرى مصورًا ما اصابهم من الجهد والبلاء:

لم يبق غيرُ طريدٍ غيرِ مُنْفَلِــتٍ وموثَقٍ في حِبال القِدِّ مسلــوبِ[3].

أو حُرَّة كمهاة الرَّمل قد كُبِلــتْ فوق المعاصم منها والعراقيــبِ[4].

تدعو قُعَيْنًا وقد عَضَّ الحديدُ بهــا عَضَّ الثِّقافِ على صُمِّ الأَنابيــبِ[5].

ولم يجد النابغة بدًا من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم، حتى يكفوا عن قومه، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة، ومدحه مدحًا رائعًا كما مدح أخاه النعمان. وأكبرا سفارته لديهما، فعقوا عمن أسراه، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما، وظل عندهما يبالغان في إكرامه ويبالغ في مديحهما، محاولاً بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم. وقد مر بنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحيانًا في بني ضنة العذريين وعشائرها من بني حن، فتوسع لهم في ديارها ومراعيها، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم، فتعرض له النابغة يخوفه منعتهم ومنعة ديارهم، ولما رأي منه إصرارًا شديدًا أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بني حن، فأعانتها ومنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة، وفي ذلك يقول:

---

(١) النظر الشذر: النظر بمؤخر العين. عرض: جانب.

(٢) الأشفار: جمع شفر، وهو هدب العين.

(٣) القد: شراك كانوا يشدون به الأسير.

(٤) المهاة: البقرة الوحشية. المعصم: موضع السوار.

(٥) قعين: عشيرة من أسد. الثقاف: خشبة تقوم بها الرماح. الأنابيب: كعوب الرماح.

لقد قلت للنعمان يـوم لقيتُـه ... يريد بني حُنٍّ ببُرْقةِ صـادرِ[1].

تجنَّبْ بني حُنٍّ فـإن لقاءَهـم ... كريهٌ وإن لم تلقَ إلا بصابـرِ[2].

عظامُ اللُّهي أَولادُ عُذْرةَ إنهـم ... لَها ميمُ يَسْتَلْهونها بالحناجـرِ[3].

وهم منعُوا وادي القُرَى من عدوهـم ... بجمعٍ مُبِيرٍ للعدوِّ المُكاثـرِ[4].

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم، ومازال يرعى مصالحهم عندهم حتى توفي عمرو ثم أخوه النعمان، فرأي أن يعود إلى النعمان بن المنذر، وكان قد غضب عليه غضبًا شديدًا، إذ كان يتخذه داعية له في قومه، وكان يرى في نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلج في مديح خصومه. وكأنه يلعن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم. وبذلك كان ذنب النابغة عظيمًا، وقد أخذ يدفع عن نفسه في اعتذاراته المشهورة التي قدمها إلى النعمان، فعفا عنه، وعاد إلى بلاطه من جيد، وحظي برضاه ونائله الغمر إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد، وألقى به في غياهب السجن حتى مات، ويقال بل ألقى به تحت أرجل الفيلة.

وواضح أننا لم نأخذ بالروايات[5] التي رواها القدماء في سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمام خوفًا على حياته، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعرًا هجاه به هجاء مقذعًا، وفي بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير الفرند والجوهر، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه، واضطغن صاحبه على النابغة فوشى به إلى النعمان وحرضه عليه. وفي رواية أن النابغة وصف زوج النعمان

---

(١) برقة صادر: موضع.

(٢) صابر: شجاع في الحرب.

(٣) اللهي هنا: المال. لهاميم: جمع لهموم وهو الضخم العظيم. يستلهونها: يبتلعونها، يصفهم بعظم الحلوق وكثرة الأكل وضخم الأجسام.

(٤) مبير: مهلك.

(٥) الأغاني ١١/ ١٢ وما بعدها وأنظر ترجمته في الشعر والشعراء.

المتجردة وصفًا استقصى فيه أعضاءها، فغار منه المنخل اليشكري وكان يهواها، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرب، فغضب النعمان، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة. وسنرى فيما بعد أن قصيدته في المتجردة موضوعة.

وفي الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التي تنبئ بأنه جني جناية عظيمة، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم، وقد كان يهم النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية. فلم عاد إليه يطلب الصفح والعفو، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات[1].

ونعتقد أن سفارته لقومه في بلاطي المناذرة والغساسنة هي التي أقلت الإشارات في شعره إلى حروب داحس والغبراء، إذ لم يشترك في وقائعها. ومع ذلك نراه في بعض شعره يأسي لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها لديار أبناء عمومتها من ذبيان، يقول:

أَبلغْ بني ذُبْيانَ أَنْ لا أَخــاً لهــم ... بعَبْسٍ إذا حَلُّوا الدِّماخَ فأَظْلَما[2].

همُ يَردون الموتَ عنــد لقائــهِ ... إذا كان وِرْد الموت لابُـدَّ أَكْرَمـا

وكأنه يحرض قومه أن يعودوا إلى السلم مع عبس مستنصرين بها ضد أعدائهم، ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وغناء في الحروب. وليس في شعره أي إشارة لوعيد أو تهديد لعبس، وكأنه كان يبقى على القربى والرحم بينه وبينها، فهو لا يتوعدها غارة ولا يندد بالوقائع التي انتصرت فيها قبيلته. ولكن إذا كان قد ترك عبسًا فقد تعرض لعامر حليفتها يهددها ويهدد سادتها وأبطالها من مثل زرعة بن عمرو وعامر بن الطفيل بغارات شعواء لقومهما تسبى فيها الأطفال والنساء. وحاول زرعة وبعض بني عامر أن يدفعوا ذبيان لنقض ما بينها وبين أسد من حلف وعقد حتى تُحفن الدماء، وعلم النابغة بذلك وأن عيينة بن حصن وبعض الذبيانيين يفكرون في الأمر، فتولى

---

(١) أغاني ١١/ ٢٩.

(٢) الدماخ: جبال. أظلم: موضع. يشير بهما إلى منازل بني عامر.

غضبًا ينشد القصائد مسفها بني عامر وعيينة وداعيًا قومه إلى الوفاء بما بينهم وبين أسد من العهود والعقود، وفي ذلك يقول قصيدته:

قالتْ بنو عامرٍ خالوا بني أَســدٍ ... يا بُؤْسَ للجهل ضَرَّارًا لأَقــوامِ[1].

يَأْبى البلاءُ فلا نبْغي بهم بــدلاً ... ولا نريد خِلاءً بعد إِحكــامِ[2].

وتوجه إلى عيينة يعنفه تعنيفًا شديدًا في قصيدة أخرى، يقول في تضاعيفها:

إذا حاوْلتَ في أَســدٍ فجــورًا ... فإني لستُ منك ولســتَ منــي

وهو موقف يدل على نبله وحرصه على الوفاء، ويدخل في ذلك مدحه لبني أسد وإشادته بشجاعتهم وبلائهم في الحروب.

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيدًا شريفًا من سادات قومه، فهو لا يتفتى تفتى امرئ القيس وطرفة وأضرابهما، بل يتراءى سيدًا وقورًا ذا خلق وشيم كريمة، فهو لا يتدنى في سفاهة ولا يتبذل في مجون. وفي أشعاره بعض إشارات مسيحية، وقد جاءه ذلك من إقامته الطويلة في الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه استمع إلى بعض ما يقوله الأحبار والرهبان، ولكن لا شك في أنه كان على دين آبائه يتعبد العزى وغيرها من آلهتهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة، وفي معلقته:

فلا لعمرُ الذي مسَّحْــتُ كَعْبتَــه ... وما هُرِيقَ على الأَنْصاب مــن جَســدِ

فهو يقدس الدماء التي كانت تصب على الأنصاب.

وكان فيه حكمة، وهي مبثوثة في شعره، ويقول ابن حبيب نه ممن حرم الخمر والأزلام في الجاهلية[3]. وهو بذلك كله يبدو سيدًا وقورًا. ويظهر أنه نال شهرة واسعة في عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضًا في داخل الجزيرة وبين الشعراء، إذ كانوا يعرضون عليه في

---

(١) خالوا: من المخالاة وهي نقض العهد.

(٢) البلاء: يقصد بلاءهم معهم في الحرب. الخلاء: نقض العهد كالمخالاة.

(٣) المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص٢٣٨.

المواسم والأسواق أشعارهم. قال صاحب الأغاني: "كان يُضرب للنابغة قبة من أدمٍ بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبو بصير، ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

وإن صَخْرًا لتأْتمُّ الهــداةُ بــهِ ... كأَنه علَمٌ في رأْســه نــارُ[1].

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفًا لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقام حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة: يا بن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مُدْركــي ... وإن خِلْتُ أَن المنتأَى عنك واســعُ

خطاطيفُ حُجْنٌ في حِبالٍ متينــةٍ ... تَمُدُّ بها أَيدٍ إليك نــوازِعُ[2].

فخنس حسان لقوله[3]". وفي رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له أنا اشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجَفَنات الغُرُّيَلْمَعْن بالضُّحــى ... وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجـدةٍ دمــا

ولدنا بني العَنْقاء وابنَـيْ محـرقٍ ... فأَكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابْنَمَـا[4].

فقال له النابغة: أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[5]. وأكبر لظن أن هذه الزيادة في تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون

---

(١) العلم هنا: الجبل.

(٢) خطاطيف: جمع خطاف وهو حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء من البئر، حجن: جمع حجناء وهي المعوجة. نوازع: جواذب. ويقصد قصائده التي يستعطفه بها.

(٣) أغاني ١١/ ٦.

(٤) العنقاء: جد الخزرج الأول. محرق: هو الحارث بن جبلة الغساني، ومعروف أن الغساسنة كالخزرج من الأزد، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه.

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٩/ ٣٤٠ والموشح للمرزباني ص٦٠.

إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال في مع التكسير يدلان على القلة. وفي الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء، بل لقد افتخر بالآباء، وإن كان عبر بكلمة ولدنا، فهي مماحكة لفظية، وما كان النابغة ليعمد إلى مثل هذه المماحكة والمغالطة. والمهم في الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره.

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته، ويظهر أنه لم يعش طويلاً، فليس في أشعاره أي شيء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدي قبيلته: هرم بن سنان والحارث بن عوف في حقن الدماء بما تحملا من ديات، ومن ثم كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفى سنة ٦٠٤[1].

(١) شعراء النصرانية ص٦٤٠.

٣

ديوانـه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له في المحبة الآسيوية (١٨٦٨-١٨٦٩) وقد استخرجها من شرح الشنتمري للدواوين الستة، وهي دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة. وسبق أن قلنا في حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعي لتلك الدواوين، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين. وقد اعتمد ديرنبورج في نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشنتمري وجدهما في باريس ومخطوطة ثالثة وجدها في فينا وهي بشرح البطليوسي. وقد نشر في سنة ١٨٩٩ ملحقًا للديوان في المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة في مجموعة في مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة.

ونشر الديوان آلورد في مجموعة الدواوين الستة التي عنى بها الشنتمري، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشنتمري، فقد ألحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده منسوبًا في كتب الأدب إلى كل منهم، وقد نشر الديوان في القاهرة مع هذه الدواوين، ولكن لا بشرح الشنتمري وإنما بشرح البطليوسي. ونشر نشرة أخرى باسم "التوضيح والبيان عن شعر نابغة بني ذبيان" وقام على هذه النشرة مصطفي أدهم سنة ٩١٠. ونشر في بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب، وهي دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائي وعلقمة الفحل. وقد نشره لويس شيخو في مجموعته "شعراء النصرانية" معتمدًا على نشرة آلوارد. ونشرة مصطفي السقا في مجموعته "مختار الشعر الجاهلي" وهذه المجموعة كما مر بنا هي نفسها مجموعة الدواوين الستة التي عنى بها الشنتمري، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه، فقد اختصره، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التي بثها الشنتمري فيه. وفي دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح. وفي مكتبة أحمد الثالث باستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك في مكتبة فيض الله

مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزي. والمخطوطتان جميعًا مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية.

ونسنعتمد في دراستنا للشاعر على شرح الشنتمري، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعي أوثق رواة الشعر الجاهلي، وهي تنتهي عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشنتمري بعقبها: "كمل جميع ما رواه الأصمعي من شعر النابغة، ونصل به قصائد متخيرة مما رواه غير الأصمعي إن شاء الله تعالى" وهي سبع قصائد رواها عن الطوسي، وهو إنما يروي عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعي أستاذ البصرة والبصريين. وكأن الأصمعي كان يشك فيها أو كان ينكرها، ولذلك لم يثبتها في روايته، ومن ثم لا نستطيع أن نعتمد عليها في دراسة النابغة، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعي، ونتخذه أساسًا لبحث الشاعر وشعره.

على أننا لا نكاد نمضي في رواية الإصمعي حتى نجدها في حاجة إلى مناقشة، فإن الإصمعي احتفظ فيها بقصيدته في المتجردة: (أمن آل مية رائح أو مغتد) مع أنه كان لا يسندها كما يقول الشنتمري. ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية. ونحن لا نقرؤها حتى نجدها تتضمن غزلاً مفحشًا، وهو غزل لا يتفق وشخصية النابغة الوقور. ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائرًا في شعر النابغة لأمكن أن نقبلها، ولكنه يأتي شذوذًا في هذه القصيدة، ليدلل- كما مر في غير هذا الموضع- على خبر مصنوع، وضعه الرواة ليفسروا به السبب في غضب النعمان بن المنذر على النابغة، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزل الماجن الذي يندي له الجبين، وكأنما ضاقت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج النعمان. ولو أن الرواة كانوا متعمقين في فهم العصر الجاهلي وما كان فيه من منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة، بل لو أنهم تعمقوا في درس شعر النابغة لعرفوا أنه اضطر اضطرارًا إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتى يفك أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة، بل لقد هزموهم هزيمة منكرة. وبذلك فقد النعمان داعيته في ذبيان، وغضب عليه غضبًا شديدًا. ومازال النابغة عندهم، ليرد كيدهم عن قومه، حتى إذا دار الزمن وتوفي خصمًا ذبيان من الغساسنة، وهما عمرو وأخوه النعمان، رأي النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن المنذر، لا خوفًا على نفسه كما يقول الرواة، بل

خوفًا من تأليبه القبائل على قبيلته. فالموقف كله كان موقفًا سياسيًا، ولم يكن موقفًا شخصيًا، ولذلك كنا نرد قصيدة المتجردة، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين علم بمرضه، ومن ثم كنا نشك في قصيدته الرائية التي يقول فيها:

أَلم تر خير الناس أَصبح نَعْشُــهُ على فتيةٍ قد جاوز الحيَّ سائــرًا

ونحن لديه نسأَل الله خُلْــده يردُّ لنا مَلْكًا ولـلأَرض عامــرًا

فإن الرواة وضعوها وضعًا، ليصوروا لنا النعمان عليلاً، ونفس أسلوبها وما في نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية، ومن ثم ننكرها كما ننكر مقطوعته التي تتصل بمرض النعمان والتي يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلاً في مطلعها:

ألم أقســم عليــك لتخبرنــي أمحمول علـى النعــش الهمــام

وأيضًا فإننا نشك في قصيدته:

لعمرك ما خشيـت علــى يزيــدٍ من الفخر المضلــل مــا أتانــي

لأن الرواة يقولون إنه هجا بها بزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي حين أصاب إبلا للنعمان، وكلاب عشيرة من عشائر بني عامر، وهي قيسية مضرية، ومع ذلك نجد النابغة يدعوه فيها يمنيًا إذ يقول في نهايتها: (ولكن لا أمانة لليمان) وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يمنى، وكأنما القافية أعوزت في البيت منتحله، بل منتحل القصيدة فدعاه يمانيًا ونسبه إلى ايمن. ومن القصائد التي جاءت في رواية الأصمعي ويملؤنا الشك فيها قصيدته:

بانت سعاد وأمسى حلبهـا أنجذمــا وأحتلت الشرع فالأجزاع مـن إضمـا

لأنها نسيب خالص، ولأن بها روحًا إسلامية تتضح في قوله مخاطبًا صاحبته:

حياك ربي فإنا لا يحــل لنــا لهو النساء وإن الدين قد عزمـا[1].

مشمرين على خــوصٍ مزنمـةٍ نرجو الإله ونرجو البر والطعمـا[2].

---

(١) الدين هنا: الحج. يريد أنهم عزموا عليه. فهو من باب القلب في التعبير.

(٢) مشمرين: جادين. الخوص: الإبل غائرة العيون. مزنمة: مشدودة بأزمتها ورحالها. الطعم هنا: الرزق.

وإذن فنحن ننكر خمس قصائد في رواية الأصمعي ونبقى على سبع عشرة، ومع إبقائنا عليها لا نخليها من بعض أبيات أدخلت في روايتها، فمن ذلك قصيدته العينية التي يعتذر فيها للنعمان، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تمضى على هذا النحو:

لعمرى وما عمرى على بهينٍ ... لقد نطقت بطلاً على الأقارع[1].

أقارع عوفٍ لا أحاول غيرها ... وجوه قرودٍ تبتغي من تجادع[2].

أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة ... له من عدو مثل ذلك شافع

أتاك بقول هلهل النسج كاذبٍ ... ولم يأت بالحق الذي هو ناصع

أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله ... ولو كبلت في ساعدي الجوامع[3].

وإنما أدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب في هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خفاف نظما هجاء في النعمان على لسانه، فلما علم به فر على وجهه. ونحن ننفي هذه الأبيات عن القصيدة ونبقى على ما عداها ونعده صحيحًا. ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التي جاءت في معلقته والتي يقول فيها عن النعمان بن المنذر:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ... ولا أحاشي من الأقوام من أحد

إلا سليمان إذ قال الإله له ... قم في البرية فاحددها عن الفند[4].

وخيس الجن إني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد[5].

فمن أطاعك فانفعه بطاعته ... كما أطاعك وادلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد[1].

---

(١) الأقارع: بنو قريع بن عوف.

(٢) تجادع: تشاتم.ولفظ وجوه منصوب على الذم.

(٣) كبلت: وضعت. الجوامع: الأغلال.

(٤) أحددها: أمنعها. الفند: الخطأ في القول والفعل.

(٥) خيس: ذلل. تدمر:مدينة الزباء في بادية الشام. الصفاح: حجارة عراض. العمدة: أساطين الرخام.

إلا لمثلك أو من أنــت سابقــه سبق الجواد إذا استولى على الأمـد[2].

وواضح أنه يسترسل في الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية، وقد كان وثنيًا على مذهب قومه، وبحق رأي طه حسين أن الأبيات أقحمت على المعلقة إقحامًا[3]. وقد نسبت إلى النابغة أبيات في غير رواية الأصمعي يقول فيها معتذرًا إلى النعمان:

أتيتك عاريًا خلقــًا ثيابــي على خوفٍ تظن بي الظنــون

فألفيت الأمانــة لــم تخنهــا كذلك كـان نــوح لا يخــون

ونفي الجلحظ[4] وابن سلام [5] أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر، وكأنهما أحسًا ما أحسه طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة. ومثلها في المعلقة الأبيات التالية التي تصور فطنة اليمامة وعدها الدقيق لحمام طائر في مضيق من الهواء يجعله يشتد في طيرانه ويسرع إسراعًا:

احكم كحكم فتاة الحي إذ نظــرت إلى حمام شراعٍ وارد الثمــد[6].

يحفه جانبًا نيــقٍ وتتبعــه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمــد[7].

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنــا إلى حمامتنا ونصفــه فقــد[8].

فحسبوه فألفوه كمــا حسبــت تسعًا وتسعين لم تنقص ولم تــزد

---

(١) الضمد: الغيظ وشدة الغضب.

(٢) الأمد: الغاية التي تجرى إليها الخيل. والبيت معلق بما قبله أي لا تقعد على غيظ إلا لمن هو مثلك في النـاس أو قريـب منك.

(٣) في الأدب الجاهلي ص٣٣٧ وما بعدها.

(٤) الحيوان ٢/ ٢٤٦.

(٥) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص٤٩-٥٠.

(٦) فتاة الحي: زرقاء اليمامة. شراع: مجتمعة. الثمد: الماء القليل.

(٧) يحفه: يحيط به. نيق: جبل. وجعل الحمام يمر في جانبي نيق لأنه إذا مر في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليـه الفضاء. وشبه عين زرقاء اليمامة بالزجاجة في صفائها. لم تكحل من الرمد: لم يصبها رمد فتكحل منه.

(٨) قد: حسب.

فكملت مائـة فيهـا حمامتهـا وأسرعت حسبة في ذلـك العـدد

وهي أبيات واضحة الانتحال. ونحن بعد ذلك نصحح بقية المعلقة، كما نصحح قصائده ومقطوعاته الأخرى التي جاءت في رواية الصمعي باستثناء ما اتهمناه.

٤

شعـره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى، فهؤلاء الأربعة في رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء في الجاهلية[١]، وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم، وأن الأربعة حقًا هم المجلون السابقون في اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم في فنونه المختلفة.

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعًا وجدنا النابغة يقرب في ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرستهما التي اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوي له اللفظ المونق والديباجة الجزلة. وقد أتيح له أن يعيش في بيئتين متحضرتين هما الحيرة وبلاط الغساسنة، فرق ذوقه وسهل منطقه ولفظه، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة.

وقد وقف القدماء طويلاً عند إجادته لفنى المديح والاعتذار، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم، وكان في غنى عن هذا القبول. "قيل لأبي عمرو بن العلاء: أفمن مخافة النعمان بن المنذر امتداحه النابغة وأتاه بعد هربه منه لغير ذلك؟ فقال: لا، لعمر الله ما لمخافته فعل، إن كان لآمنا من أن يوجه النعمان له جيشًا، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده، لا يستعمل غير ذلك[٢]".

ويبعد في رأينا أن يكون قد وفد على أبي النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعي يخلو من مديحهما. أما أن تكسبه بالشعر وأخذه نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غض منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكسب، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا، فقد كان سفيرها في

---

(١) أنظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) أغاني ١١/ ٢٩ وما بعدها.

بلاطها. وحقًا إنه يبالغ في مديحه واعتذاره، ولكنها مبالغة لا تنتهي إلى ذلة نفس، بل هي المبالغة التي تأتي من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته.

وليس شعره جميعه مديحًا واعتذارًا فقد رثى النعمان الغساني، وهو يقدم لرثائه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان في الصحراء وصيده. وأيضًا ففي شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته وأحلافها من بني أسد وأعدائها من بني عامر، وبعبارة أخرى في شعره فخر وهجاء، وفي تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسرابًا من الحكمة والتجربة الصادقة، وما يدل على وفائه وصدق مودته.

ونحن لا نلم بمديحه للغساسنة حتى نؤمن حقًا بأنه كان شاعرًا بارعًا، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع في معانيه وكيف يستم صوره. وخير مدائحه فيهم قصيدته البائية، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم، يقول:

كليني لهم يا أميمة ناصـــب ... وليلٍ أقاسيه بطـئ الكواكـــب[1].

تطاول حتى قلت ليس بمنقـــضٍ ... وليس الذي يرعى النجوم بآيـــب[2].

وصدرٍ أراح الليل عازب همـــه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانـب[3].

فهو محزون في أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع في قبضة الغساسنة من أسرى قومه، ونراه يصور طول الليل وهمه فيه تصويرًا بديعًا، فالكواكب بطيئة لا تجرى، حتى ليظن أن الصبح الذي يرعى النجوم بأضوائه ويحصدها حصدًا لن يؤوب، والليل يثقل على صدره بما يرد عليه من موجات الهم والحزنٍ. وهي براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيرًا واضحًا مستقيمًا بالصور.

---

(١) كليني: دعيني. ناصب: متعب. بطئ الكواكب: كناية عن أنها لا تغور ولا تمضى.

(٢) آيب: راجع. وأراد براعي النجوم الصباح.

(٣) أراح: رد. العازب: البعيد.

وقد خرج من ذلك توًا إلى مدح عمرو بن الحارث الغساني وآبائه وعشيرته، ووقف طويلاً عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية، وأطال في هذا التصوير قائلاً:

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب[1].

يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم ... من الضاريات بالدماء الدوارب[2].

تراهن خلف القوم خزرًا عيونها ... جلوس الشيوخ في ثياب المرانب[3].

جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب[4].

لهن عليهم عادة قد عرفنها على ... إذا عرض الخطى فوق الكواثب[5].

عارفاتٍ للطعان عوابسٍ ... بهن كلوم بين دام وجالب[6].

إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا ... إلى الموت إرقال الجمال المصاعب[7].

فهم يتساقون المنية بينهم ... بأيديهم بيض رقاق المضارب[8].

يطير فضاضًا بينها كل قونس ... ويتبعهامنهم فراش الحواجب[9].

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب[10].

تورثن من أزمان يوم حليمةٍ ... إلى اليوم قد جربن كل التجارب[11].

---

(١) عصائب: جماعات.

(٢) الضاريات: المتعودات. الدوارب: المدربة.

(٣) خزر العيون: جمع أخزر وهو الذي ينظر بمؤخر عينه. المرانب: ثياب سوداء.

(٤) جوانح: مائلات للوقوع.

(٥) الخطي: الرماح. الكوائب: القربوس.

(٦) عارفات: صابرات. كلوم: جروح. دام وجالب: مدم ومتجمد عليه الدم.

(٧) أرقلوا: أسرعوا. المصاعب: النافرة.

(٨) بيض: سيوف.

(٩) فضاضًا: متفرقًا. القونس: أعلى الرأس. فراش الحواجب: عظامها.

(١٠) فلول: ثلوم. قراع: مضاربة.

تقد السلوقي المضاعــف نسجــه وتوقد بالصفاح نــار الحباحــب[٢].

بضرب يزيل الهام عــن سكناتــه وطعنٍ كإيزاغ المخاض الضــوارب[٣].

وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغساسنة، تنتظر زادهًا من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله:

وترى الطيــر علــى آثارنــا رأي عينٍ ثقــة أن ستمــار[٤].

غير أن النابغة فصل الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفًا دقيقًا، فالنسور والعقبان خزر العيون، وهي تشبه في ألوانها ثياب المرانب السوداء التي يلبسها الشيوخ، وهي تسير خلفهم موقنة بأنها لابد أن تجد زادها من أعدائهم، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد، وهي لذلك لا تزال جانحة، عادة عرفتها فيهم لا يخلفونها ولا يمطلونها. وقد أعجب القدماء طويلاً بهذه الصورة عند النابغة، فتعاور عليها الشعراء، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته[٥]. ويمضي النابغة فيصور شجاعة الجيش، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم. ونلاحظ هنا الدقة في الوصف، وهي دقة استتبعت ضربًا من الطباق. وقد صورهم يتساقون كئوس المنية، كناية عن جرأتهم في الحرب واقتحامهم لأهوالها، ثم صور كيف يثخنون في أعدائهم، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها مدح شديد، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد، وهو ليس في حقيقته عيبًا،بل هو مفخرة من مفاخرهم، فسيوفهم مفللة من طول قراعها ومضاربتها للكتائب. ومثل هذا التعبير الذي سبق إليه يدل على أنه كان يدقق في معانيه وألفاظه جميعًا. ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم في يوم حليمة الذي هزم فيه المناذرة شر هزيمة، حتى لقد قتل المنذر بن ماء السماء في ساحة المعركة. وقد جعل سيوفهم المفللة تشق

---

(١) يوم حليمة: معركة مشهورة انتصر فيها الحارث بن جبلة الغساني على المنذر بن ماء السماء.

(٢) السلوقي: الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن. تقد: تشق. الصفاح: الحجارة ويريد خوذ الجنود. الحباحب: ذباب له شعاع بالليل.

(٣) الهام: جمع هامة وهي الرأس. سكناته: حيث يسكن ويستقر.الإيزاغ: دفع الناقة بولها. المخاض: الحوامل.

(٤) أنظر ديوان الأفوه ص١٣. تمار: تعطي الميرة من لحوم القتلى.

(٥) أنظر الصناعتين للعسكري (طبعة الحلبي) ص٢٢٥ والوساطة للجرجاني (طبعة الحلبي) ص٢٧٤.

الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقًا مطيحة برءوسهم ومرسلة شررًا لا ينقطع ضياؤه حتى لكأنه أشعة الحباحب، وسيولاً من الدماء كأنها إيزاغ المخاض. حتى إذا استوفي كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة في ميادين الحروب انتقل يصورهم في سلمهم متحدثًا عن شيمهم وشمائلهم ودينهم ونعيمهم، يقول:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهـــم ... من الجود، والأحلام غير عـــوازب[1].

ملحتهم ذات الإلـــه، ودينهـــم ... قويم فما يرجون غير العواقـــب[2].

رقاق النعال طيـــب حجزاتهـــم ... يحيون بالريحان يوم الساســـب[3].

تحييهم بيض الولائـــد بينهـــم ... وأكسية الإضريج فوق المشاجـــب[4].

يصونون أجسادًا قديمـــًا نعيمهـــا ... بخالصة الأردان خضر المناكـــب[5].

ولا يحسبون الخير لا شـــر بعـــده ... ولا يحسبون الشر ضربـــة لازب[6].

حبوت بها غسان إذ كنـت لاحقـــًا ... بقومي وإذ أعيت على مذاهبـــي[7].

وهو في أول الأبيات يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول، ثم يأخذ في وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا في غير هذا الموضع. ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة، ولعله يريد كنائيهم،ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب، وكأنه يستحثهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم. وتحول يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاهة العيش، فهم رقاق النعال، وهم أعفاء، يحيون بالأزهار في عيد السباسب أو يوم الثعانين، وهو من أعياد

---

(١) الآحلام: العقول. عوازب: جمع عازب وهو الغائب.

(٢) محلتهم: منزلتهم، ذات الإله: يقصد كنائسهم.

(٣) الحجزات: معاقد الثياب. طيب حجزاتهم: كناية عن عفتهم.

(٤) الولائد: الجواري والإماء. الإضريج: الحرير الأحمر. المضشاجب: جمع مشجب وهو أعواد تعلق عليها الثياب.

(٥) الأردان: الأكمام. وخلوصها: نصوع بياضها.

(٦) لازب: لازم.

(٧) بها: يريد قصيدته. أعيت مذاهبه عليه: ضاقت وسدت.

النصارى، وهم منعون يلبسون ثيابًا بيض المناكب خضر الأكمام. واد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجوهم واستتبع ذلك شرًا وبلاء فإن في الغساسنة خيرًا كثيرًا. ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت بسبب من أسر منهم عند ممدوحيه،وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم، وردوها فعلاً لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع.

وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها في معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة. وقد نفذ في أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة، إذ صور دينهم وترفهم وما هم فيه من نعيم. وهو في ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير في مديحه، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني ولا تلم بخواطرهم، أما هو فعاش أغلب أيامه في الحيرة وفي بلاط الغساسنة، فكان طبيعيًا أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتي بمثل هذه المعاني التي تروق ممدوحيه من الأمراء.

وإذا كان النابغة يتفوق في المديح تفوقًا ظاهرًا فإنه كذلك يتفوق في الاعتذار، وكأن ذوقه الحضري هو الذي أعده لهذا التفوق، إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحًا في التلطف محاولاً أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه. وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها، مديحًا في ذلك قصائد طوالاً تعد من أروع ما خلفه العصر الجاهلي لا لطولها فحسب، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته. وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضري الذي خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجامحة، فإذا ذنبه يكبر في نفسه، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر، فماينى يقدم للنعمان المعاذير متخذًا إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة. وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام، حفاظًا على صداقته القديمة له واستبقاء لوده، وهو حسن تأت لاصغار نفس ولا مهانة، ولا طلبًا لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء، وإنما هو الذوق الحضاري الذي اكتسبه النابغة والذي جعله يختلف عن معاصريه ويقترب من ذوق العباسيين المتحضرين، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون في التنصل منه، وتقديم شتى المعاذير. وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه، وارجع إلى المعلقة فتساره يستهلها بوصف أطلال دارمية، ثم وصف ناقته التي قطع بها الصحراء

إلى مقصده مفتنًا في تصويرها، ومشبهًا لها بصور تناضله كلاب الصيد، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والخيل ومن الجواري المنعمات، ثم مضى يستعطفه قائلاً:

فلا لعمر الذي مستحت كعبتــه ... وما هريق على الأنصاب من حسد[1].

والمؤمن العائذات الطير تمسحهــا ... ركبان مكة بين الغيل والسعــد[2].

ما قلت من سيئ مما أتيت بــه ... إذن فلا رفعت سوطى إلى يــدي

إلا مقالـة أقـومٍ شقيت بهــا ... كانت مقالتهم قرعًا على الكــبد[3].

إذن فعاقبنـي ربــي معاقبــة ... قرت بها عين من يأتيك بالفنــد[4].

أنبئت أن أبا قابوس أو عدنــى ... ولا قرار على زأرٍ من الأســد[5].

مهلاً فداء لـك الأقــوام كلهــم ... وما أثمر من مالٍ ومن ولــد[6].

لا تقذفني بركنٍ لا كفــاء لــه ... وإن تأثفك الأعداء بالرفــد[7].

وواضح أنه يقسم له بإيمانه الوثنية المغلظة أنه برئ مما يتهم به من غدر، ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق، ولتشل يده إن كان ما يقول الوشاة صحيحًا. ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفًا أمام النعمان وقرته وبطشه، ويمثله أسدًا جائعًا يزأر، وقد وقع منه موقع الفريسة. وسرعان

---

(١) مسحت: لمست ألتمس البركة. هريق: سال. الجسد: الدم. الأنصاب: الحجارة التي كانوا يذبحون عليها قرابينهم للآلهة.

(٢) المؤمن: الذي آمنها من الخوف. العائذات: اللاجئات إلى الحرم. تمسحها الركبان: يريد أنها تمسح عليها ولا تهيجها بصيد. الغيل والسعد: أجمتان بين مكة ومنى.

(٣) القرع: الضرب.

(٤) الفند: الكذب.

(٥) أبو قابوس: النعمان بن المنذر.

(٦) أثمر: أنمى وأجمع.

(٧) الكفاء: النظير والمثل. تأثف: تجمع. الرفد: الجماعات من الناس.

ما يعود إلى الاستعطاف، فالناس جميعًا من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان، بل إنه ليفديه بماله وولده، ويقول له لا ترمني بما لا أطيق منك، وأنت الذي لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يثبتوا له. ويخرج من ذلك إلى مديحه، ثم يعود إلى استعطافه فيقول:

فما الفرات إذا هب الرياح له ... ترمى أواذيه العبرين بالزبد[1].

يمده كل وادٍ مترعٍ لجبٍ ... فيه ركام من الينبوت والخضد[2].

يظل من خوفه الملاح معتصماً ... بالخيزرانة بعد الأين والنجد[3].

يومًا بأجود منه سيب نافلة ... ولا يحول عطاء اليوم دون غد[4].

هذا الثناء فإن تسمع به حسناً ... فلم أعرض- أبيت اللعن- بالصفد[5].

ها إن ذي عذرة إلا تكن نفعت ... فإن صاحبها مشارك النكد[6].

وقد بدأ فشبهه بالفرات في كرمه، ثم أخذ يصف الفرات في ارتفاع فيضانه، وعمد إلى تفصيل الصورة، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية في دقة التصوير، فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد، وهو ينساب حاملاً ما يقتلعه من الأشجار والنباتات، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصمًا في مركبه بسكانها يخشى الغرق. وقد نفي أن يكون الفرات في فيضانه أكرم من النعمان وأكثر سيبًا. ودائمًا يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة، ليدل على براعته. ونراه يعود إلى استعطاف النعمان، وأنه قدم له هذا الثناء لا يبغي به نواله، وإنما يبغي رضاه، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به في مهاوي النكد والهم. ومن بديع اعتذاراته قصيدته العينية، وفيها يقول:

وعيد أبي قابوس في غير كنهه ... أتاني ودوني راكس فالضواجع[1].

---

(١) أواذيه: أمواجه. العبرين: الشياطين.

(٢) مترع/ مملوء. لجب: ذو صوت شديد. الينبوت: شجر. الخضد المحطم من الأشجار.

(٣) الخيزرانة: سكان السفينة. الأين: التعب. النجد: الكرب.

(٤) سيب: عطاء. نافلة: زيادة يريد أن عطاءه وفر.

(٥) الصفد: العطاء. أبيت اللعن: تحية كانوا يحيون بها ملوكهم.

(٦) عذرة: اعتذار. مشارك النكد: حليف نكدوهم.

فبت كأبي ساروتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع[٢].

يسهد من ليل التمام سليمها ... لحلي النساء في يديه قعاقع[٣].

تناذرها الراقون من سوء سمها ... تطلقه طورًا، وطورًا تراجع[٤].

أتاني- أبيت اللعن- أنك لمتنى ... وتلك التي تستك منها المسامع[٥].

مقالة أن قد قلت سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رابع

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً ... وهل يأثمن ذو أمةٍ وهو طائع[٦].

بمصطحباتٍ من لصافٍ وثبرةٍ ... يزرن إلالاً، سيرهن التدافع[٧].

سهامًا تباري الريح خوصًا عيونها ... لهن رذايا بالطريق ودائع[٨].

عليهن شعث عامدون لحجهم ... فهن كأطراف الحنى خواضع[٩].

لكفتني ذنب امرئٍ وتركته ... كذي العر يكوي غيره وهو راتع[١٠].

فإن كنت لاذو الضغن عني مكذب ... ولا حلفي على البراءة نابع

---

(١) في غير كنهه: كنهه: حقيقته، يريد على غير ذنب منه. راكس: واد في منازل بني أسد. الضواجع: منحنى الوادي.

(٢) ساورتني: لدغتني. ضئيلة: أفعى دقيقة الجسم. الرقش: جمع رقشاء، وهي المنطقة نقطًا بيضاء وسوداء. ناقع: قاتل.

(٣) يسهد: يمنع من النوم. ليل التمام: أطول ليالي الشتاء السليم: الملدوغ. قعاقع: أصوات. كانوا يجعلون الحلى في يد الملدوغ اعتقادًا منهم بأنها تشفيه.

(٤) يقول من خبثها لا تجيب الراقي. بل مرة تجيب ومرة لا تجيب. تناذرها الراقون: خوف بعضهم بعضًا منها.

(٥) تستك: تضيق.

(٦) أمة هنا: دين.

(٧) بمصطحبات: أقسم الإبل التي تصطحب في المسير إلى الحج. لصاف وثبرة: موضعان في ديار تميم. إلال: جبل بعرفة. التدافع: العجلة.

(٨) سهامًا: طائر شديد الطيران شبه به الإبل في سرعتها. خوصًا: غائرات من شدة السير وإجهاده. رذايًا: جمع رذية وهي الساقطة إعياء من الإبل. ودائع: مستودعات في الطريق. يريد ما سقط منهن إعياء فترك.

(٩) شعث: جمع أشعث وهو المغبر من طول السفر. الحنى: القسي. الخواضع: المتطامنة رءوسها من الأرض.

(١٠) العر: الجرب. وكانوا يداوون الإبل منه بكيها.

ولا أنا مأمون بشيء أقوله وأنت بأمرٍ لا محالة واقع

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأي عنك واسع[1].

خطاطيف حجن في حبالٍ متينةٍ تمد بها أيدٍ إليك نوازع[2].

أتوعد عبدًا لم يخنك أمانةً وتترك عبدًا ظالمًا وهو ضالع[3].

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه وسيف أعيرته المنية قاطع[4].

أبي الله إلا عدله ووفاءه فلا النكر ولا العرف ضائع[5].

وتسقى إذا ما شئت غير مصردٍ بزواء في حافاتها المسك كانع[6].

وهو في أول هذه الأبيات يقول له: إن وعيدك أتاني وأنا آمن في قومي وبيني وبينك منازل بني أسد ومن وراءهم، فألمت حفظًا للعهد وبت مسهدًا، كأنما لدغتني أفعى، وهي صورة بارعة، وقد أخذ يدقق حتى يجسم ألمه، فهي أفعى من الرقش تستودع السم في أنيابها الحادة، فمن عضته لم يطف به النوم من شدة الألم، وعلق عليه أهله الحلي والخلاخيل حتى يفيق ويبرأ. وهي من الأفاعي الخبيثة التي قلما أجابت الرقي، وإن الرقاة والحاوين لبرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا حماها. ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه، ويحلف له بأيمانه الوثنية، ويختار هنا الحلف بالإبل التي كانوا ينذرونها لآلهتهم، ويقف ليعطينا صورة عن هذه الإبل، فهي تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام، حتى لكأنها تباري الريح، وقد أجهدت من السير وطول السفر، حتى إن بعضها سقط في الطريق إعياء، فلم ينبعث ولم يستطع براحًا. وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون يقصدون الحج، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسى الضامرة. وهذا اليمين العظيم يقسم به

---

(١) المنتأى: المكان النائي البعيد.

(٢) مرشرحه.

(٣) ضالع: مائل عن الحق، ويروي ظالع وهو الجائر المذنب.

(٤) الربيع هنا: الغيث. السيب: العطاء.

(٥) النكر: المنكر. العرف: المعروف.

(٦) مصرد: من التصريد وهو الشرب دون الري: زوراء: كأس طويلة من فضة كان النعمان يشرب فيها. كانع: لاصق.

متنصلاً مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة يمدحهم ويهجوه، وكان حريًا به أن ينزل سخطه لا عليه، وإنما على هذا الواشي وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوي من الجرب، والأجرب راتع بجانبه لا يصيبه كي ولا أذى. وهي صورة أخرى بارعة. ويقول إن كنت لا تكذب من يضطغن على ولا تصدق يميني ولا خلفي فما أحراني بالرهبة منك والخوف من بطشك، ويودع ذلك صورة رائعة، إذ يتخيل النعمان كالليل، لا مفر لشخص من أن يطبق عليه. وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده التي يرسل بها إليه ليلين قبله عليه كأنها خطاطيف معوجة ثبتت في حبال متينة، وأيدي النابغة تمد بها إليه، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه. ويصور له أمانته وأنه لا يخون عهده، بينما من يخاتنون هذا العهد يقربهم ويرعاهم،ويختم اعتذاره إليه بمديحه والثناء عليه، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه، وقد براه الله لرعيته عادلاً وفيًا، لا يلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر، يجزي على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحسانًا، وانتهي بتمثيل ما هو فيه من نعيم، فهو يشرب في كأس مفضضة مزج ما فيها بالمسك والطيب. ومن رائع اعتذاراته إليه قوله:

أتاني- أبيت اللعن- أنك لمتني ... وتلك التي أهتم منها وأنصب[1].

فبت كأن العائدات فرشنني ... هراسًا به يعلى فراشي ويقشب[2].

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني خيانةً ... لمبلغك الواشي أغش وأكذب

ولكنني كنت امرأ لي جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب[3].

ملوك وخوان إذا ما أتيتهم ... أحكم في أموالهم وأقرب

كفعلك في قومٍ أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

---

(١) أنصب: أجهد جهدًا شديدًا.

(٢) الهراس: شجر كثير الشوك. العائدات: الزائرات في المرض. فرشني: بسطن لي. يقشب: يجدد.

(٣) جانب من الأرض: متسع. مستراد: يذهب فيه الإنسان كما يريد. كناية عن إكرام الغساسنة له في ديارهم.

وإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب[1].

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملكٍ دونها يتذبذب[2].

ولست بمستبقٍ أخًا لا تلمه على شعثٍ، أي الرجال المهذب[3].

فإن أك مظلومًا فعبدًا ظلمته وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب[4].

وواضح أنه يصور نفسه في أول هذه الأيات حين بلغه لوم النعمان بمريض، قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفًا عليه. ويحلف له بأنه يرئ مما اتهمه به الواشي، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة، فأكرموه وحكموه في أموالهم، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويعدق عليهم من نواله. وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه، وما يلبث أن يعرفه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم، يتوارون في ضيائه ومجده، وهي صورة باهرة لا شك أنها تركت أثرًا بليغًا في نفس النعمان. وقد تلاها باستعطافه، فصور له ما صبه عليه من غضب بالقار يُصب على الأجرب فيتحاماه الناس. ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته، بل يضطربون دون سمائه. ويقول له: هب أن مديحي للغساسنة هفوة واعف عني، فإن لكل شخص هفرة، وأين الأخ الذي لا يهفو ولا يعثر؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياءه ومن يخلصون له الولاء، فإن ظلمتني قبلت ظلمك، وإن أسدلت على عفوك ورضاك فليس غريبًا منك، فمثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل.

---

(١) القار: القطران، وكانوا يداوون به الإبل الحربي.

(٢) السورة: المنزلة. يتذبذب: يضطرب ولا يصل إليها.

(٣) شعث: فساد. تلمه: تجمعه وتضمه.

(٤) عتبي: رضا. يعتب: يعطي العتبي والرضا.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة في اعتذاره ومديحه جميعًا، فقد كان يعرف كيف ينوع معانيه وكيف يسلك إليها شعبًا لم يسلكها أحد من قبله. والذي لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعانٍ دقيقة، يقوده في ذلك ذوقه الحضري الذي نصب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنبًا كبيرًا وجرمًا لا يغتفر في حق النعمان بن المنذر، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية. وبذلك كان فاتحًا لباب الاعتذار على مصراعيه، وعلى هديه تبعه الشعراء في العصور الإسلامية متخذين منه قدوتهم.

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضًا برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغساني، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهًا لها بحمار وحشي، ويخرج من ذلك إلى الرثاء، فيقول إنه أحزنه نعي النعمان وإن كان سر قيسًا لما أثخن فيها بحروبه. وهو يعبر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل، ومن ثم لا يشمت بموت النعمان كما شمتت ذبيان وغيرها من قبائل قيس، بل إنه ليدعو على أعدائه أن يهنئوا بمصرعه، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها في القبائل. ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والضن بسابق الود، فقد ظنوا أنه لن يرثى النعمان ولن يذكره، ويقول كيف لا يذكره، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال في فؤاده، ونحسن أنه سعر قبله وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو. ومازال يبكيه متعزيًا بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع، حتى قال داعيًا له ومترحمًا عليه:

سقى الغيث قبرابين بصرى وجاسمٍ ... بغيثٍ من الوسمى قطر ووابل[1].

ولا زال ريحان ومسك وعنبر ... على منتهاه دمية ثم هاطل[2].

وينبت حوذانًا وعوفًا منورًا ... سأتبعه من خير ما قال قائل[3].

---

(١) بصرى وجاسم: موضعان بالشام. الوسمي: أول المطر. وابل: غزير.

(٢) منتهاه: قبره. الديمه: المطر ليس فيه برق ولا رعد. الهاطل: المطر المتتابع.

(٣) الحوذان والعوف: نباتان طيبًا الرائحة.

وهو يستمطر على قبره شآبيب الغيث، ولا يكتفي بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطرًا بالريحان والمسك والعنبر، ولا تزال تمده الأمطار بما ينبت عنده النباتات العاطرة من مثل الحواذن والعرف. وحقًا كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور من يفقدونهم، ولكنه مد أطناب الصورة بذوقه الحضري وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر، ودعا للأرض أن تنبت من حول النعمان الأزهار والرياض. وهي صورة حضارية تقابل أختها التي مرت في مديحه لأخيه عمرو.

وقد قدم لهذه المرثية كما قلنا بالنسيب، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسيًا بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالبًا في مقدمات قصائدهم، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم. ومن نسيبه قوله في فاتحة معلقته التي أودعها إحدى اعتذاراته:

يا دار مية بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأبد[1].

وقفت فيها أصيلانًا أسائلها ... عيت جوابًا وما بالربع من أحد[2].

إلا الأواري لأيًا ما أبينها ... والنوى كالحوض بالمظلومة الجلد[3].

ردت عليه أقاصيه ولبده ... ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد[4].

خلت سبيل أتى كان يحبسه ... ورفعته إلى السجفين فالنضد[5].

أمست خلاءً وأمسى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد[6].

---

(١) العلياء والسند: موضعان. أقوت: خلت. الأبد: الزمن.

(٢) أصيلانا: تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران. عيت: عجزت.

(٣) الأواري: الأوتاد وما يربط بها من حبال. النؤى: حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول. المظلومة: الأرض صعبة الحفر. الجلد: الصلبة.

(٤) لبده: جمعه. الوليدة: الأمة. الثأد: الثري الندي.

(٥) خلت: شقت. الأتى: السيل. رفعته أعلته. السجفان: مصراعًا الستر في الخيمة. النضد: المتاع.

(٦) أخنى عليها: أصابها بآفات الدهر. لبد: نسر للقمان يقولون إنه عمر طويلاً.

وهو يستهلها بنداء دار مية ولا يسمع رجعًا لندائه ولا ردًا عليه، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل. ويقول إنه وقف بها وقف بها وقت الأصيل يسائلها ولا من مجيب، ويصف آثارها وما أبقى الزمن منها، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النؤى. ويطيل في وصفه ليظهر قدرته الخيالية، فقد حفرته جارية في أرض صلبة، وما زالت ترد أتربته على حوافيه، باسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر. وقد أبدع في تسمية الأرض التي لم تحفر بالمظلومة، وهو أول من أعطاها هذا الاسم، كأنه أحس إزاء الصخر الذي لا يحرث ولا يزرع بضرب من الظلم. وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التي رحل عنها أهلها بمظهر بال، فقد جرت الأيام عليها أذيال اللبى والعفاء، كما جرتها من قبل على لبد نسر لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته.

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف، ولكن ليس فيه عاطفة قوية، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة، فهو ينسب بالمرأة لا ليصور حبًا، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث. وقد أوشك في مقدمته لاعتذاريته العينية أن يصور عواطفه وحبه ولكنه لم يكد يقول:

فكفكفت منى عبـــرة فرددتهـــا على النحر منها مستهـل ودامـع[1].

حتى أمسك نفسه، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب. ونراه في معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضائها، ثم يأخذ في تشبيهها بثور وحشي، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك، يقول:

من وحش وجرة موشى أكارعـــه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد[2].

أسرت عليه من الجوزاء ساريـــة تزجى الشمال عليه جامد البـرد[3].

---

(١) كفكف الدمع: مسحه. المستهل: السائل. الدامع: الذي يترقرق في العين قبل أن يسقط.

(٢) وجرة: موضع بنجد. موشى أكارعه: مزينة قوائمه بالنقط. طاوي المصير: ضامر البطن. الصيقل: الحداد. الفرد: المسلول.

(٣) أسرت: جاءت ليلاً. الجوزاء: برج في السماء. سارية: سحابة. تزجى: تدفع الشمال: ريح الشمال.

فارتاع من صوت كلابٍ فبات، لـــه طوع الشوامت من خوف ومن صرد[1].

فبثهن عليه واستمـــر بـــه صمع الكعوب بريات من الحـرد[2].

وكان ضمران منه حيث يوزعـــه طعن المعارك عند المحجر النجـد[3].

شك الفريضة بالمدى فأنفذهـــا طعن المبيطر إذ يشفي من العضـد[4].

كأنه خارجًا من جنب صفحتـــه سفود شربٍ نسوه عند مفتـاد[5].

فظل يعجم أعلى الروق منقبضـــًا في حالك اللون صدقٍ غيـر ذي أود[6].

لما رأي واشق إقعاص صاحبـــه ولا سبيل إلى عقل ولا قـود[7].

قالت له النفس إني لا أرى طمعـــًا وإن مولاك لم يسلم ولم يصـد[8].

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط، وهو ضامر كالسيف المسول، يجرى في الصحراء خائفًا متوجسًا لما تسقط عليه السماء من بردٍ لا ينقطع. ولم يلبث أن ذعر ذعرًا شديدًا إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه، فأسرع في جريه، ولمحه القانص فبعث عليه كلابه، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجًا منها كل ما يبتغي من سرعة، ولكن الكلاب لحقت به، وكان أول ما لقيه منها ضمران، ونشب بينهما صراع عنيف، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء، نفذت إلى ظاهر صدره، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضًا متألمًا إلى أن لفظ أنفاسه. ولما رأي واشق ما أصاب أخاه وأنه لن

---

(١) الشوامت: القوائم ويريد بطوعها إسراعها به. والصرد: البرد.

(٢) استمر به: اشتد به وقوى. صمع: ضوامر. بريات: بريئات. الحرد: العرج.

(٣) ضمران: اسم كلب للصائد. يوزعه: يغريه. المحجر: حمى القبيلة النجد: الشجاع.

(٤) الفريصة: لحم الكتف. المدري: القرن. المبيطر: معالج الحيوان. العضد: داء يلم بكتفها.

(٥) السفود: الحديدة التي يشوى عليها اللحم. نسوه: تركوه. مفتأد: موضع النار الذي يشوى فيه.

(٦) يعجم: يعلك. صدق: صادق في الطعن. أود: عوج.

(٧) واشق: اسم كلب آخر للصائد. الإقعاص: القتل السريع. العقل: الدية. القود: القصاص.

(٨) المولى: الناصر. يسلم هنا: يأسر.

يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور إبقاء على نفسه، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان يبغي، فدون بغيته الموت والهلاك.

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسيب السابق، لما بث النابغة في الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه، فالثور خائف يترقب، والكلاب طامعة تتربص. وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه. ويقتل ضمران. وينظر أخوه واشق فيري أن القصاص غير ممكن، وتحدثه نفسه بأنه يطمع في غير طائل، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة، وقد قذفت به في مهاوي اليأس والقنوط. ولا ينسى النابغة مهارته في التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها في نسيج الأيات.

وفي ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بني أسد من حلف وبينها وبين بني عامر من حرب، وهو في هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه في المديح والاعتذار والرثاء، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتمادى فيه، وخاصة في الهجاء، واقرأ له هذه الأبيات في عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوه:

فإن يك عامر قد قال جهلاً ... فإن مطية الجهل السباب

فكن كأبيك أو كأبي براءٍ ... توافقك الحكومة والصواب[1].

ولا تذهب بحلمك طاميات ... من الخيلاء ليس لهن باب[2].

وإنك سوف تحلم أو تناهى ... إذا ما شبت أو شاب الغراب[3].

وهي أبيات تخلو من الإقذاع في الهجاء المعروف عند الجاهليين، وهو يعمد فيها بذوقه الحضري إلى التهكم به والسخرية منه، فيصفه بالحمق، ويصغر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه، وينهاه عن الخيلاء، ويؤمله في أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبدًا. وواضح أن الشطر الثاني في البيت الأول حكمه سائرة، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتي بها في ثنايا شعره وقصيده،

---

(١) أبو براء: عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل.

(٢) طاميات: فائضات ومرتفعات. ليس لهن باب: لا مخرج منهن.

(٣) أو شاب الغرب: ضرب النابغة ذلك مثلاً لعامر وأنه لن يحلم أبدًا.

فتكون شطرًا كهذا الشطر، وقد تكون بيتًا كالبيت الأخير من هذه الأبيات، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها، ومن رائعها قوله:

ولست بمستبقٍ أخـا لا تلمـه ... على شعثٍ، أي الرجـال المذهـب

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظرته ودقة حسه.

وجوانب كثيرة في شعر النابغة تفصح عن مهارته في صوغ القصيدة ونظمها، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صورة ومعانيه، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابية، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة في دلالاتها الدقيقة، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشي، أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة. وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسي يقولون: إنه "كان أحسن الجاهلين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتًا[1]". على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يقوى في شعره محتجين على ذلك ببيت في قصيدة المتجردة التي وضعت عليه، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروى، بينما رويها المطرد مكسور، ورووا في ذلك قصة، هي أن النابغة قدم يثرب، فعاب عليه أهلها ذلك في قصيدته المذكورة، فلم يأبه[2]. ولكن القصيدة كما قدمنا مما نحل على النابغة، فحرى أن تكون القصة مثلها منحولة.

وإذا كان النابغة يُعنى بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه، وهي عناية أتاحت له كثرة الخواطر في اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع، وأيضًا فإنها أتاحت له ضربًا من ترتيب أفكاره، ويتضح ذلك في تنسيقه لموضوعات بعض قصائده، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع، وارجع إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجًا تسنده المناسبة، حتى إذا أتم هذا الوصف قال:

فتلك تبلغني النعمـان إن لـه ... فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعـد

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٠٨.

(٢) ابن سلام ص٥٥ وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) ١١/ ١٠.

وكذلك صنع في اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجًا متصلاً، إذ قال إنه كف عن التشبيب والحب لشيبه ولما يشغله من هم، هو غضب النعمان، على هذه الشاكلة:

وقد حال هم دون ذلك شاغـــل مكان الشغاف تبتغيـــه الأصابـــغ[1].

وعيد أبى قابوس في غير كنهـــه أتاني ودوني راكـــس فالضواجـــع

وهذه العناية البالغة بالمعاني والألفاظ كان يؤازرها عنده عنايته بالصور وما يطوي فيها من تشبيهات واستعارات؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب، بل نلاحظ أيضًا القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التي تخلب لبه، وخاصة حين يتنصل للنعمان بن المنذر من ذنبه، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعطفًا مسترحمًا. وكان له ذوق جيد في اختيار صوره ومعانيه جميعًا، وهو ذوق هذبته الحضارة التي نعم بها في الحيرة وبلاط الغساسنة، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة، وإذا هو يأتي في مديحه ورثائه بمعان حضارية غير مألوفة للجاهليين. وليس ذلك فحسب، فإنه يفتح صفحة جديدة هي صفحة الاعتذاريات والاستعطافات وما يجرى فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق، وتسربت من ذلك أسراب في جميع موضوعات شعره، حتى الهجاء.

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التي تتمثل في وقاره وارتفاعه عن الدنيات ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحفاظه الشديد على العهد وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التي أحلتها في العصر الجاهلي وأسبابها، إذ جعوه محكمًا بين الشعراء في عكاظ كما قدمنا، وكأنه في رأيهم الشاعر الفذ الذي لا يشق غباره والذي لا ينطق عن هوى أو عصبية، ومن ثم كان حكمه قاطعًا لا يقبل طعنًا ولا نقضًا.

---

(١) الشغاف: حجاب القلب.